ارتفاع الصليب

سر منسوب الى القديس كيرلس اسقف اورشليم

٣١٣–٣٨٧م

نشره لاول مرّة ، وعلّق عليه

الخوري بولس قرألي ، مدير المجلة البطريركية

٦

البحث الثالث

دلائل نسبته (تابع)

٣ً – أسلوبه

وان قارنا بين أسلوب صاحب هذا اليمر وآرائه ومعلوماته عن الصليب المقدس واسلوب القديس كيرلس الاورشليمي وافكاره ومعلوماته ، وجدناها مطابقة متوافقة .

لهذا القديس اربع وعشرون عظة مشهورة باسمه لا ينكرها عليه أحد[1] ، القاها في بدء اسقفيته في سنة ٣٤٨ . منها ثماني عشرة عُرفت باسم كتكيزيس *Catecheses* , Κατηχήσεις اي عظات الموعوظين ، استهلّها بمقدمة *Procatechesis* القاها في كنيسة القيامة ، في صوم سنة ٣٤٨ ، على الاحداث المقدّمين لاقتبال اسرار العماد والتثبيت والمناولة في فصح تلك السنة . وفي الاسبوع الذي جاء بعد هذا العيد ، شرح لهم الاسرار في خمس عظات أخرى دُعيت مستاجوجيكا *mystagogica* اي شرح الاسرار القاها في معبد القبر المقدس . فلننظر اولًا في اسلوبه .

في المثل الفرنسوي: « الانشاء هو الانسان » ، اعني ان الانشاء ينبئك عن

---

١) راجع معجم اللاهوت لفاكان مج ٣ ، ع ٢٥٢٣ ، ٢٥٢٤

صاحبه ممثلاً لك طريقته وعقليته ومزاجه . فمن راجع هذه العظات وطالع الميمر عرف فيه القديس كيرلس بطريقته وميزاته وعيوبه .

في المقالة التي نشرها الاب لباشله اليسوعي في معجم اللاهوت الكاثوليكي[1] في ترجمة القديس كيرلس الاورشليمي لخص فيها تعاليم هذا القديس في عظاته ، وقال في صدرها[2] ، ان انشاءه ملائم لسامعيه الاحداث ، بسيط واضح ، مهما ست افكاره ، خالٍ من الاصطلاحات اللاهوتية ، ذو لهجة ودّية ابوية ممزجة بنبرة حماسية تساعد على الاقتناع . وفي جانب هذه المزايا بعض العيوب . فانك تعثر بعبارات غير كاملة المعنى ، وبفقرات طويلة خارجة عن الموضوع الاصلي . ناهيك عن مراجعات مملّة ونصوص من الكتاب المقدس مشوّهة أو مختلفة عن الاصل . والسبب في ذلك ان القديس لم يكتب عظاته بنفسه بل كان يلقيها بداهةً كيفما اتفق له . وجاء بعده من التقطها واختصرها وكتبها لنا كما علقت بذهنه وعلى قدر معرفته وقوّة ادراكه .

هذا الوصف ينطبق تماماً انشاء الميمر واسلوبه . وان فات بعض تعابيره الوضوح ، الذي يشير اليه صاحب المقالة ، فالذنب على المترجم الفشيم او على النصّ الذي وقع في يده . وقد اشرنا سابقاً الى الحكايات الطويلة التي تتخلل الميمر وتشغل القسم الاكبر منه . وسنعود اليها في كلامنا عن نظامه .

ومن خصائص القديس كيرلس انه يشيّد عظاته وبراهينه على نصوص الكتاب المقدس . ولعله اول من ابتدع استهلال الخطاب بآية كتابية وتعليقه برمته بها ، وتقسيمه على حسب معانيها . لانه « كان يعتبر الكتاب المقدس اساس كل التعليم الكنسي »[3] وكان ينتقد به اقوال الهراطقة واليهود والسامريين[4] .

وسترى ان الميمر كله قائم على آيتي المزامير « ملك الرب فلتهلّل الامم . ملك الرب فلتنتضب الامم . »[5] وهما تمثلان قسمي العظة يشرحهما ويدعم كل

---

١) ڤاكان مج ٣ ، ع ٢٥٢٢-٢٥٧٧
٢) ع ٢٥٢٤
٣) ع ٢٥٤٢
٤) ع ٢٥٢٨
٥) مز ٩٦ : ١٠ ، ٩٨ : ١ ، ٩٣ : ١

اقواله بآيات ونصوص الكتاب المقدس وببعض البراهين العقلية والتقليدية.

٤ – افكاره

ان اخبار عجائب الصليب واخفائه واكتشافه تستغرق تقريباً الميمر كله، ولا تترك فيه مجالاً للارشاد، اي الوعظ بحصر المعنى، سوى القليل، مما لا يتجاوز خمس صفحات. فالآراء اللاهوتية فيه نادرة. ومن جهة اخرى لم يتسنَّ لنا مقابلتها مع عظات القديس كيرلس المذكورة، تاركين لغيرنا هذه المهمة، التي تجرنا الى ابعد مما نقصد من هذه التوطئة. فاكتفينا بمقابلتها مع الخلاصة التي نشرها الاب لباشله المذكور آنفاً. فوجدنا بين الصدرين شبهاً كبيراً، وعثرنا في بعضهما على الفكر نفسه مكرراً حرفياً. واليك بعض ما لاحظناه من هذا التوارد:

الروح القدس – استهلّ صاحب الميمر كلامه بقوله، في صفحة ١٨٨: «نحن نسأل الفارقليط روح الحق الواحد مع الاب والابن. والاب والابن واحد معه. الثالوث المقدس. وثالوثاً من اجل ان فيه ثلاثة اسماء. الاب والابن والروح القدس.»

وجاء في عظة القديس كيرلس السادسة عشرة رقم ٤، ع ٩٢١ ضد المرقيانيين[1]: «نطق وجاءنا على الاب والابن والروح القدس. نحن لا نقول ثلاثة الهة بل الهاً واحداً مع الابن والروح القدس». وفي العظة ١٧ رقم ٥ ع ٩٧٣ يقول[2]: «ان الروح القدس واحد مع الاب والابن في كل شيء، في الاعمال الخارجية وفي الحياة الداخلية.» ويلاحظ الاب لباشله ان القديس قال هذا القول قبل ظهور بدعة المكدونيين وقبل ان يكتب القديس اثناسيوس الاسكندري رسالته الشهيرة الى سرابيون.

الكاهن والقربان – تتردد في الميمر مراراً فكرة «المسيح الكاهن والقربان». وكبش اسحاق الذي هو اله بالحقيقة. والخروف الذي بلا عيب

١) معجم فاكان مج ٣، ع ٣٥٤٦
٢) فاكان ع ٣٥٤٧

المذبوح على صليب الجلجلة ، ودمه ملطخ على ابواب قلوبنا وشفاهنا » الصفحات ٢١٣ و ٢١٤ و ٢١٨ و ٢١٩ و ٢٥٠

وهي نفس فكرة القديس كيرلس يوردها في العظات العاشرة رقم ٤ و١٤ والحادية عشرة رقم ١ و٤ ع ٦٦٤ و ٦٨٠ و ٦٩٢ . وخاصة في الرابعة والعشرين رقم ٩ ، التي يشرح فيها نظام القداس ومعانيه ، فيسمي المسيح « الضحية المذبوحة على الجلجلة » و« الكاهن والذبيحة » وما الى ذلك من التعابير الحائمة حول المعنى ذاته[1] .

في ولادتي المسيح — في صفحة ٢١٩ من الميمر يقول عن السيد المسيح : « ولدته مريم العذراء من الروح القدس » . وفي صفحة ١٩٢ : « ولدته من غير زرعة بشر » وفي صفحة ١٨٧ : « هو ابن داود بالجسد » وفي صفحة ٢٥٠ يورد هكذا فقرة قانون الايمان الخاصة بالتجسد : « تجسد من مريم العذراء وولد في العالم » ليميز هذا التجسد عن ولادته الاولى الازلية من الاب .

وفي العظتين الحادية عشرة رقم ٥ والثانية عشرة رقم ٤ ع ٦٩٦ و ٧٢٩ نقرأ « هو ابن الله وابن داوود . ولد المرة الاولى من الاب والثانية من العذراء » وخلاف ذلك مما يقرب من هذا التعبير ويرجع الى المعنى نفسه[2] .

الاله المنظور — في صفحة ١٩٣ من الميمر يقول عن السيد المخلص : « انه لبس الجسد واتحد به لاهوته ليخلص عبيده . وعمل الاشياء كلها مثلنا ما عدا الخطيئة . . . والاله متحد به داخله وخارجه اما القول داخل الجسد من اجل انه ليس يعاين احد مجده وهو لابس اللاهوت فيحيا . واما القول خارج الجسد فمن اجل انهم كانوا ينظرونه يصنع الشفاء . »

هذا القول وارد بمعناه في عدة فقرات من عظات القديس كيرلس ، لاسيما في عظته عن المخلع رقم ٦ حيث يقول : « الكلمة اتخذ جسداً معرضاً مثلنا للانفعالات . ولكن ليس هنا مسيحان بل مسيح واحد بطبيعتين . » وفي العظة ٤ رقم ٩ ع ٤٦٦ يقول : « هو انسان من الجهة المنظورة واله من الجهة الغير المنظورة . انسان يأكل مثلنا وينام . واله يسير على المياه ويشبع خمسة آلاف

(١) ثاكان ع ٢٥٢٦، ٢٥٤٨، ٢٥٧٥ (٢) ع ثاكان ٢٥٥٠

رجل بخمس خبزات »[1] . ولاحظ ان القديس كيرلس لفظ هـذه العظات في اواسط القرن الرابع، قبل ظهور بدعة اليعاقبة في القرن السادس.

عبودية الخطية وأسر الجحيم — يقول القديس كيرلس في عظته الثالثة رقم ١ ع ٧٧٢ : « ان يسوع المسيح قد اعتنق كل الـذين كانوا مأسورين تحت نير الخطية[2] » . وفي العظة الرابعـة رقم ١١ و١٤ والرابع عشرة رقم ١٩ و٢٤ ع ٤٦٩ و٨٤٩ و٨٥٧ يتكلم عن نزوله الى الجحيم وعتقه الابرار الذين كانوا مسجونين فيه واصطحابهم معه في صعوده منتصراً الى السما.[3]

هذه الفكرة قد توسع فيها صاحب الميمر في الصفحات ١٨٩—١٩٢ ، حيث مثل الشيطان بالخارجي الـذي سطا على كورة الملك واسر غلمانه وحاشيتـه . فخرج اليه الملك وغلبه ونزل الى الجحيم واسترد خواصه المأسورين فيه وأتى بهم الى محل ملكه . . . هذا كان في الزمان الذي تملكت فيه الخطيئة في العالم . . . وكان الناس تحت رق عبوديتها »

سلاح الجسد — واظهر من ذلك ما قاله القديس كيرلس في عظته الثانية عشرة رقم ١٣- ١٥ ع ٧٤٠ « ان المسيح قد استعمل لخلاصنا نفس الاسلحـة التي استخدمها الشيطان ليغلبنا . »[4]

هذه الفكرة واردة تقريباً حرفياً في الميمر في صفحة ١٩٢ منه حيث يقول عن السيد المسيح : « انه لبس السلاح الذي حارب به ذلـك الخارجي ، اعني به هذا الجسد الذي اتحد به مع اللاهوت . »

٥ — معلوماته عن الصليب

ان تخصيص القديس كيرلس ميمراً بكامله لاكتشاف القبر والصليب ليس بالامر المستغرب ، بل المستغرب ان لا يكون له في هـذا الموضوع اكثر من هذا الميمر . فهو اسقف اورشليم المدينة التي قدسهـا الفادي الالهي بموته على الصليب فيها ودفنه وقيامته وعجائبه .

---

١) فاكان ع ٢٥٥٠ ٢) فاكان ع ٢٥٥٤
٣) فاكان ع ٢٥٥٦ ٤) فاكان ع ٢٥٥٠

وقد كانت حفلة ارتفاع الصليب بلغت في عهد القديس أوج عزها واصبحت مظهراً لاكبر عيد في النصرانية ، تتقاطر الجماهير الغفيرة لحضورها في كرسي هذا الاسقف وتنحني عشرات الالوف من الرؤوس تحت يديه الرافعتين الذخيرة الثمينة ، هاتفين لدى رؤيته بكل حماستهم : كيرياليسون ! فكيف لا يتحمس القديس لهذا المظهر الكبير من مظاهر النصرانية في مدينته وامام عينيه وتحت رئاسته ! وهل يصح في ذلك اليوم العظيم ان لا يكلم الجموع عن الصليب الذي جعلهم من اقطار المسكونة لتكريمه فيخبرهم عن امجاده وآياته وظهوره وبناء كنيسته !

فلا غرو اذا قدّم لنا هذا القديس اقدم شهادة عن وجود الصليب وهي الواردة في رسالته الى قسطنس الملك حيث يصرّح ان الصليب وُجد في عهد والدة قسطنطين ، اي قبل وفاته سنة ٣٣٧.

وفي عظاته الملقاة على المرعوظين في صوم سنة ٣٤٧ معلومات اخرى عن الصليب وعبادته استنتج منها الاب لكلير وغيره ان هذه العبادة قديمة [1] . ففي العظة الرابعة يقول عن المسيح « انه صُلب حقيقة لاجل خطايانا . وان عنّ لك ان تنكر ذلك فهذا المكان الشهير يكذّبك . »[2] وفي العظة عينها يقول[3] « ان ذخائر الصليب قد توزعت الآن في كل اقطار العالم » . وفي العاشرة يصرح[4] : « للمسيح شهادات كثيرة . . . منها هذا الصليب المقدس الذي نراه بيننا حتى اليوم ، والذي يتهافت المؤمنون على اقتسام ذخائره وقد ملأوا منها الارض كلها . »

---

١) كابرول مج ٣ ع ٢١٢٢ حاشية ١٠

٢) كابرول مج ٣ ع ٢١٢٥ . راجع النص في مجموعة مين للآباء اليونان مج ٣٣ عظة ٤ رقم ٩ و ١٠ ع ٤٦٧ حيث يثبتنا ان القديس يقصد المانويين القائلين بان القيرواني صلب بدلاً من المسيح .

٣) مين ع ٤٧٠

٤) رقم ١٩

١٥ — نظام الميمر ونصر بحاه وعصره

أ — النظام

ان نظام الميمر ، او بالاحرى عدم نظامه ، دليل على انه غير مصطنع . هب ان الملفق شطّ عن البرنامج الذي اختطه نفسه ، فما الداعي لاعتذاره وابقاء العيب الذي اعتذر عنه في الميمر . فقد كان احرى به ان يحذفه او يصلحه ، قبل ان ينشر ميمره .

وقد سبق لنا القول ان القديس كيرلس كثيراً ما ينسى نفسه وموضوعه ، فيتوغل في حكايات جاء بها عرضاً على سبيل المثل فتصبح اصلاً . واليك برنامج الميمر واستدراكاته .

اولاً : البرنامج قلنا ان الميمر معلّق حكمه على آيتي المزامير « ملك الرب فلتتهلل الامم . وملك الرب فلتغضب الامم . » غضب اليهود من حسنات المسيح : في سيرته الحافلة وعجائبه مدة حياته وبعد موته ، فاضطهدوه وقتلوه ورذموا قبره وغضبت الوثنية من حسنات النصرانية ونجاحها فاعلن الامبراطرة عليها الاضطهاد من اول نشأتها حتى قسطنطين . وعاد يوليانوس فجدده .

ومن جهة اخرى ملك المسيح وانتصر على الشيطان وخلص اتباعه من اسر الخطية وعاقب اليهود بخراب اورشليم وهيكلهم وتشتيت شملهم واذلالهم . واهلك ايضاً اعداءه الملوك : كديوقلسيانوس معلن الاضطهاد العام على المسيحية ، ومكسيميانوس دازا ، ذابح الفرقة المسيحية من الجيش ومواصل الاضطهاد ، ويوليانوس ، الذي جحد المسيح وحاول قتل ديانته ، فاماته شرّ ميتة . بيد انه نصر قسطنطين مجبه بعلامة صليبه ، فبحث عن خشبته ، واجبر اليهود على رفع الردم عنها وبنى لها كنيسة القيامة الفخيمة واغلق هياكل الاصنام وحوّل بعضها الى كنائس أغدق عليها الاموال .

ثانياً : الاستدراكات — هذا برنامج الميمر العام ، يظهر لنا منظماً بخطوطه العامة متماسكاً باجزائه ، لولا الفقرات والحكايات الطويلة التي تصبح جوهراً في

الميمر مع انها عرض . وترى الواعظ ينتبه كل مرة لشططه فيعتذر للسامعين ويعود الى الموضوع ليخرج منه في اول فرصة منقادًا لمخيلته القوية. ثم لا يلبث ان يفطن لخطإه فيصلحه برجوعه الى البرنامج الاصلي.

ففي صفحة ٢٠٨ بعد ان أسهب في قصة اسحق السامري وعادات تطهير اليهود ، وهو يقصد في الحقيقة سرد اعجوبة تحلية ماء البئر في حقل يندوم بصليب رماه فيه الانبا واكس ، نسمعه يقول للحاضرين: «وهذا قد صرنا كمن نسي القول.» ثم يعود ليخبر عن اعتماد اسحق السامري فيحكي كيف انه دخل كنيسة القيامة وطلب مقابلته ويشغل بقصته الصفحتين ٢٠٩ و٢١٠ ثم يستدرك بقوله: «والآن نكمل تأويل الكلام من اجل المكتوب في المزامير.» ويخوض في الشرح عن تجسد المسيح وفوائد صلبه وصليبه الروحية . وفيما هو في ذلك يلاحظ تكاثر الجموع في الكنيسة وذهاب الوقت فيستدرك قائلًا صفحة ٢١٢: « ولكن ، يا احبائي ، انا ارى الوقت قد اقترب والجمع الذي اتوا الى العيد يريدوا يسمعوا تمام القول الذي قاله الرب لموسى ان يعيدوا ثلاث دفعات في السنة. » فيشبه حينئذ عيد ارتفاع الصليب بعيد اليهود ويفسر لسامعيه ان الدم الملطخ على اعتاب منازل اليهود هو رمز لدم المسيح الذبيحة والكاهن (صفحة ٢١٢ - ٢١٦) الذي قام من الموت «ولما صعد الى ابيه صرخوا الملائكة قائلين: ملك الرب على جميع الامم . الله القدوس جلس على كرسيه » .

وهكذا يرجع الى الآية ويشرح كيفية انتصار المسيح بظهوره لقسطنطين، الذي اتقى الاضطهاد وبحث عن الصليب فوجده وبنى له كنيسة عظيمة . حتى اذا جاء على آخر القصة وجد ان الميمر قد استغرق الوقت المعدّ لحفلتي العماد والمناولة ، اللتين كانتا تسبقان حفلة ارتفاع الصليب ، فلا يرى بدًّا من اختصارهما وادماجهما الواحدة بالاخرى . فيختم عظته قائلًا في صفحة ٢٤٨: «والآن فلنكف ها هنا عن القول ولنقرب الى الاهتمام بالمعمودية المقدسة والقربان دفعة واحدة لان الوقت اقترب . وايضاً من اجل تعب الذين اتوا الينا اليوم الى هذا الموضع المقدس. »

فهل يعقل ان تكون مصطنعة ملفقة كل هذه الاستدراكات البديهية

والمواقف الطبيعية والمخاطبات الموجهة الى السامعين والملاحظات على تكاثر الجمع رويدًا رويدًا وازدحامه فضلًا عن الاشارات المتكررة الى حفلة الهيوزيس وكنيسة القيامة والقبر المقدس ؟ هذا غير معقول وغير مقبول . لان التصنع يوجب التفكر والتروّي ويؤذن لصاحبه في تنظيم ما يلفقه كما يشاء ، لاتساع الوقت معه ، وليس ما يحوجه الى ابقاء شطحاته على عيبها والاعتذار عنها ، بدلًا من اصلاحها قبل تقديم خطابه الى الجمهور .

٢ً — عصره

حان لنا ان نتساءل في اي عصر وُضع هذا الميمر ، او بعبارة اخرى هل عصر القديس كيرلس ملائم له ؟

لقد اجبنا على نصف هذا السؤال حين سردنا النصوص الدالة على انه أُلقي في كنيسة القيامة باورشليم بجانب القبر المقدس على جمهور مسيحي فلسطيني مجتمع للاحتفال بعيد ارتفاع الصليب وتدشين الكنائس . واذا التقطنا بقية نصوص الميمر المشيرة الى العصر والحقبة واليوم الذي أُلقي فيه ، عرفنا انه قد أُلقي قبل الفتح الاسلامي ، في عهد اشتداد بدعة آريوس وانخفاض شأن بدعة مركلوس الانقيري ، قبل ظهور بدعتي النسطورية واليعاقبة ، بعد مصرع يوليانوس الجاحد ، في الحقبة التي اتخذت فيها حفلات الصليب التقدم على عيد التدشين ، والتي شاعت فيها رواية علاقة القديسة هيلانة باكتشاف القبر والصليب ، في عيد ارتفاع الصليب ، قبيل حفلة تكريسه .

اولًا : قبل الفتح الاسلامي تدل نصوص الميمر على انه أُلقي في اورشليم قبل وقوعها في ايدي الاسلام : فقد ورد في صفحة ٢٢٥ ما نصه : « الصليب مقوي الملوك يحمي الله ويحماه لهم تاج . وهو على القضيب الذي في ايديهم . والصليب مصوَّر في بيوت الملوك ويحماه في الطريق على السُدد وزوايا البيوت ليكون لهم قوة ولجميع العابرين . والصليب مكتوب على السفن ينجيهم من الرياح والعواصف الردية [٢٢٦] وهو مكتوب على تاجات الملوك ليعطيهم النعمة .

الصليب المقدس هو قدام كل كتابة تكتب[1] . يا لهذه القوة والفخر الذي للنصارى . لانهم ليس يصنعون شيء من امور العالم الا بالصليب ... الصليب هو على موائد المؤمنين ويبارك طعامهم هو في ولائمهم .» كل هذا الكلام لا ينطبق على بلد يحكمه الاسلام .

ثانياً : البدع — رأيت الحملة التي حملها صاحب الميمر على الاريوسيين الدالة على استفحال امرهم ولا يخفى ان قسطنطين مال اليها وتنصر في آخر حياته من اوسابيوس اسقف نيقوميدية الاريوسي . واخذ ابنه قسطنس يناصرها[1] ونفى القديس كيرلس واساقفة كثيرين غيره لمقاومتهم لها . ولما عاد القديس بعد وفاة قسطنس سنة ٣٦٢ استصدر الاريوسيون سنة ٣٦٧ امراً من والنتنيانوس باعادته الى المنفى ، كما سبق القول . ولا يخفى ان هذه البدعة قد تلاشى شأنها او ضعف كثيراً في اواسط القرن الخامس . ولم يعد محل لخوف الواعظ منها ولا داعٍ لحملته الشعواء المذكورة .

ومعلوم ان بدعة نسطور قامت ضدها في اوائل القرن الخامس واشتد ساعدها طول هذا القرن فقاومتها بدعة ديوسقوروس ، التي انتشرت بين السريان في القرن السادس وحاربها تلاميذ مار مارون واتباعه الموارنة . فان تمثا في كلام صاحب الميمر نراه يعني بالهراطقة الاريوسيين فقط . ففي صفحة ٢١٩ بعد ان تكلم عن الوحش الذي ظاهره كالحمل وهو بالحقيقة فهد هائل قال : « هكذا الهراطقة الغير المؤمنين ... ان كان المسيح انسان وليس هو الله يا ايها الهرطيقي ... فلا تذكروا يا احبائي كلام الهراطقة ولا تدخلوا كنايسهم لان ليس لهم كنايس . » وقد اثبتنا في ما سبق انه يقصد بالهراطقة هؤلاء الاريوسيين . فالميمر قد القي قبل اواسط القرن الخامس .

ومما يؤيد رأينا رجوحاً اهمال صاحب الميمر ذكر بدعتي نسطور وديوسقوروس

---

(١) لا بد انه يعني الكتابات الرسمية لان العصر لم يكن فيه تقريباً سوى هذه الكتابات او الرسائل ذات الاهمية الاولى .

(١) فاكان مج ٣ ع ٢٥٢٦

مع ان تلامه يثبت انه ليس من القائلين بها ، كما بينا سابقاً ، وهذا ايضاً من دلائل القاء الميمر قبل اوائل القرن الخامس .

وفي الميمر ، خاصة في صدره ، نصوص تتكرر تكرراً مدهشاً لاثبات ملكوت المسيح سردناها اعلاه واستنتجنا منها ان الواعظ يقصد بدعة مركلوس الانقيري وتلاميذه . انما ليس هناك تحمس ضدهم ولا تحذير المؤمنين منهم ، كما كان شأنه ضد الاريوسيين ، مما يدل على ان البدعة قاربت التلاشي او تلاشت من عهد قريب ، انما بقي ذكرها في ذهنه وذهن السامعين .

وقد سبق القول ان مركلوس حُرم في مجمع صور سنة ٣٣٥ وتوفي في سنة ٣٧٤ . ولم تعش بدعته بعده كثيراً ، مما يوصلنا الى الربع الاخير من القرن الرابع .

ثالثاً : بعد مصرع يوليانس سنة ٣٦٣ — من البراهين التي يقدمها صاحب الميمر على عظمة الصليب والوهية المصلوب قوله في صفحة ٢٢٦ انه أهلك الملوك اعداءه وفسر نجيبه . وهو يقتصر في ذلك على ذكر الامبراطرة الاربعة الاخيرين : ديوقليسيانس (٢٨٤ - ٣٠٥) ومكسيميانوس دازا (٣٠٧-٣١٤) وقسطنطين الملك (٣٠٦-٣٣٧) وابن اخته يوليانوس الجاحد . (٣٦١-٣٦٣)

والواعظ يصف مصرع هذا الاخير وصفاً رائعاً مقروناً بتفاصيل ونعوت تدل على تأثير هذا المصرع في مخيلته وعلى رغبته في التأثير على سامعيه بقوله في صفحتي ٢٢٦ و٢٢٧ : « واهلك يوليانس الكافر لانه لم يتبعه وخلاه خلفه . وذلك المنافق الكافر صار قرن الهلاك امام الرجال ورذل الانبياء الاطهار . وكان يثلبهم دفوع كثيرة . ويعترف فيهم الذي لا يجب فتحه فيه[1] ولسانه المقطوع ويقول اني قرأتهم وفهمتهم . بالحقيقة يا احبائي انه لم يقرأهم ولم يفهمهم . ولو انه عرف معناهم ومجد فخر النصارى فلم يكن يموت موت شرير . لانه صار عدو الصليب في حياته فلاجل هذا الماء الذي كانت الخنازير تشبع منه مات ذلك المنافق وهو عطشان منه[2] . وشرب من بول الخيل ومن بوله هو

١) العبارة مضطربة ، كما ترى ، وغامضة .
٢) لاحظ ان الانشاء بعيد جداً عن العربية وقريب جداً من اسلوب اللغة اليونانية .

ايضاً . ولم يكن جسده يستحق ان يجعل في قبر ولا كفن لجسده من اجل انه صار عدوًّا للصليب » . فالميمر اذًا القي بعد سنة ٣٦٣ وبدة لا تزيد عن ٢٥ سنة من هذا التاريخ .

اما اهاله ذكر قسطنس خافه المتوفى سنة ٣٦٢ ، واهمال الثناء عليه فيسهل تفسيره بان المذكور نفى القديس كيرلس مرتين من اورشليم .

وانك لا تجد في الميمر كله اشارة الى اسم او حادثة وقعت بعد هذا التاريخ بكثير .

رابعاً : حفلات الصليب — اذا جمعنا اقوال الخطيب في العيد الذي يلقي فيه ميمره رأيناه يسميه عيد الصليب ويفضله على كل الاعياد ، حتى عيد الفصح ، مع اشارته الى عيد تدشين الكنيسة الذي حلّ محله وما زال له بعض الاهمية انما ثانوية بالنسبة اليه . ولا يخفى ان قسطنطين جعل لعيد تدشين الكنائس سنة ٣٣٥ المقام الاول بين الاعياد ، وعيّن له ثمانية ايام وعممه بصفة رسمية على كل الامبراطورية . ولم تكن حفلة اعطاء البركة بالصليب سوى مظهر من مظاهر عيد التدشين فاصبحت في الربع الاخير من القرن الرابع في المقام الاول حتى اضطر الآباء ، كما تشهد اثيريا ، ان يضموا العيدين معاً « ليزيدوا في بهجة العيد » وفي الحقيقة انهم خافوا من ذهاب شأن العيد الاصلي . وسنورد عناوين الميمر الدالة على ان القديس كيرلس « قاله لعيد الصليب » ، فضلًا عما جاء في صدره صفحة ١٨٧ « وهذا المجمع الذي اجتمع اليوم في هذا الموضع من كل كورة لكي يعاينوا مجده ويقبلوه اعني الصليب المحيي » . وغير ذلك من النصوص التي سنلتقي بها عند مطالعة هذا الميمر ، والتي تؤيد قولنا .

أضف الى ذلك ان العصر الذي وُضع فيه الميمر كان لا يزال عصر التقاليد ، سابقاً لعصر المؤلفات التاريخية المنتشرة . فصاحب الميمر لا يستند الى مؤرخي اوائل القرن الخامس ، وهم كثر ، بل الى التقاليد في ما يرجع الى القرون الثلاثة الاولى ، والى معلوماته الشخصية في حوادث القرن الرابع . وهذا يدل على ان الميمر وضع قبل اوائل القرن الخامس ، وان صاحبه شهد عياناً كثيراً من الحوادث التاريخية التي يوردها .

ففي صفحة ٢١٨ ، في صدد اعجوبة شفاء اكلاوبا واقامة ابنه ، التي جرت في اواسط او اواخر القرن الاول ، يقول : « حدثنا بها ساداتنا الاولين » . وفي صفحة ٢١٧ لما روى حكاية اخفاء الصلبان الثلاثة في مغارة القبر ، قال : « هوذا أبيّن لكم القول كما عرّفنا نيقوديموس ويوسف الرامي » . وفي صفحة ٢٢٧ يستند ايضاً الى يوسف الرامي وبرنباس في حكاية ردم اليهود لقبر المسيح بزبالاتهم وفي صفحة ٢٢٧ يعود الى القول : « ان اليهود ارادوا ان يحرقوا [1] خشبة الصليب ، كما عرّفنا يوسف وبرنباس العبرانيين . »

نعم ان هذه التقاليد قديمة من القرن الاول ، انما يدل الكلام عنها على ان راويها من العصور القريبة منها . بينما نراه لا يستند مطلقاً الى تاريخ مكتوب ، كتاريخ اوسابيوس ، في رواية حوادث القرن الرابع : كرؤيا قسطنطين واكتشاف القبر والصليب وبناء الكنائس والملكة هيلانة ويهوذا واساقفة اورشليم واسماء علماء اليهود ، والملوك ديوقليسيانس ومكسيميانوس وقسطنطين ويوليانوس . وحفلات ارتفاع الصليب وتدشين الكنائس وهرطقتي الاريوسيين ومركاوس الانقيري ، وبقية الحوادث التي جرت في هذا القرن ووصفها او ذكرها او اشار اليها عرضاً او ضمناً . الا ترى في كل ذلك دليلاً على انه كان معاصراً لها او قريباً جداً من عهدها ؟

خامساً — لقد مر بك ان رواية علاقة القديسة هيلانة والاسقف يهوذا باكتشاف القبر والصليب قد نشأت في اواسط القرن الرابع وشاعت في اواخره في العالم المسيحي شرقاً وغرباً . فرددها القديسان امبروسيوس في رثائه لتودوسيوس الملك سنة ٣٩٥ ، والقديس يوحنا فم الذهب في عظته الخامسة والثمانين ، التي القاها بين سنتي ٣٩٠ و٣٩٥ . وقد صرّح هاذان القديسان ان الملكة هيلانة عرفت الصليب الحقيقي بين الصلبان الثلاثة من الكتابة الباقية عليه [2] . خلافاً للاساطير السريانيّة وللمؤرخين الذين جاؤوا بعدهما في اوائل القرن الخامس .

---

١) في الاصل : يخفوا

٢) كابرول مج ٣ ق ٢ ع ٣١٢٥

فروفينوس المؤرخ (سنة ٤٠٢)، وعنه اخذ المؤرخ سقراط، يصرح ان الصليب الحقيقي عُرف من وضعه على امرأة مشرفة على الموت استجلبها القديس مكاريوس اسقف اورشليم، فبنت له الملكة كنيسة. وعلى قول القديس بولينوس من تولي (سنة ٤٠٢) وعنه اخذ سولبيس ساويوس، ان الملكة هي التي عرفت مكان الصليب من اجوبة اليهود والمسيحيين فسارت بالحفر في الجلجلة. ولما ظهرت الصلبان الثلاثة استجلبت، هي لا مكاريوس، جثة مائت ووضعت عليها الصلبان الثلاثة فقام من لمس الصليب الحقيقي.[1]

ولما كانت رواية الميمر، المنسوب الى القديس كيرلس، توافق من جهة رأي القديسين امبروسيوس ويوحنا فم الذهب (٣٩٠-٣٩٥)، ومؤداه ان الصليب عرف من الكتابة الباقية عليه؛ وتخالف من جهة اخرى آراء مؤرخي اوائل القرن الخامس المذكورين اعلاه، فتنسب التحري عن مكان الصليب الى الملك قسطنطين لا الى والدته، وتصرح انه عُرف من الكتابة الباقية عليه لا من اعجوبة شفاء مُدنفة او اقامة ميت، فالميمر اذاً أُلقي قبل اوائل القرن الخامس. ولعله سبق بقليل السنين العشر الاخيرة من القرن الرابع.

ولما كان الميمر قد ذكر مصرع يوليانس سنة ٣٦٣، والقديس كيرلس قد عاد من النفي الى كرسيه اورشليم سنة ٣٦٢ ومكث فيها حتى سنة ٣٦٧، التي نفي فيها للمرة الثانية، فقد لفظ هذا الميمر بين سنتي ٣٦٣ و٣٦٧، او بين سنة ٣٧٨، التي رجع فيها من منفاه للمرة الاخيرة، وسنة ٣٨٧ التي توفي فيها.

اما اليوم الذي القاه فيه فمعروف من العبارات التي ابتدأها آنفاً، والتي تصرح انه لفظه في عيد ارتفاع الصليب الواقع في الرابع عشر من شهر ايلول، قبيل حفلتي العماد والمناولة السابقتين لحفلة تكريم الصليب، اي الهيوزيس، كما شرحنا سابقاً.

٣ً – تصريحاته

كل ما سبق يحملنا على تصديق ما صرّح بـه الميمر، تصريحاً لا يدع

(١) كابرول ع ٢١٢٥ و٢١٢٦

مجالًا للشك ، بان قائله هو القديس كيرلس الاورشليمي.

واليك اولًا عناوين المخطوطات الثلاث.

جاء في مخطوطة بكركي في صفحة ١٨٧ :

« تبتدى تكتب ميامر من قول القديس كيريللوس رييس اساقفة اورشليم قاله لعيد الصليب الكريم بركة صلاته تحفظنا امين »

وهاك نص عنوان مخطوطة حلب :

« تبتدى بعون الله وحسن توفيقه تقرأ ميمر للقديس كيرللوس رييس اساقفة اورشليم قاله ايضًا لعيد الصليب الناير المقدس . ايضًا من اجل الكلام الذي قاله الله لموسى اصنع لي العيد ثلث دفعات في السنة . وايضًا منجل (من اجل) الصليب النور الذي ظهر في مغبرة سيدنا يسوع المسيح . وايضًا من اجل اسحاق السارري الذي عمده . قال هذا الميمر في كنيسة القيامة في سبع عشر من شهر ايلول (١ المبارك وكان شعب الارثذوكسيين مجتمعين ليسجدوا الصليب المقدس بسلام الرب امين »

واليك ايضاً عنوان ميمر المتحف القبطي :

« ظهور الصليب »

« ميمر قاله الاب القديس كيرلص اسقف مدينة اورشليم من اجل كرامة الصليب المجيد وظهوره على يد الملك البار قسطنطين والمه هيلانه : — يقرى ذلك في اليوم السابع عشر من شهر توت المبارك بسلامة من الرب آمين »

ثانياً ان القديس كيرلس يخطب في الميمر بصيغة المتكلم ويشير الى نفسه مرارًا : ففي صفحة ٢٠٨ يخبرنا ان المؤمنين بنوا كنيسة على جب حقل يندوم ويردف قائلًا :« ودعوا اسمها كنيسة الصليب وعرّفوا مسكنتي انا الحقير كيرللوس فكرّرتها ونظرتُ انا ايضاً بعيني تلك الآية التي ظهرت اسفل الجب»

وفي صفحة ٢٠٥ عندما يخبر عن الانبا واكس صانع اعجوبة تحلية الماء ، لا يُلقب نفسه بانبا ولا بقديس ولا باسقف ، بل يكتفي بلقب « الاب كيرلس » ، بينما نراه ينفح الاب واكس بهذه الالقاب الثلاثة . واليك النص : « وقال الانبا واكس الى اسحاق:« قوم وامضي الى اورشليم واسأل عن كنيسة

---

١) نظن ان الاصل ١٧ توت الموافق للرابع عشر من ايلول . راجع قنان وايل : مج ٢ صفحة ٢٠٤ . ويظهر ان الناسخ ترجم شهر توت بايلول تاركًا تاريخ اليوم على ما كان.

القيامة فادخل اليها فانك تجد الاب كيرللس هو هناك . وهو يعرّفك عن طريق الخلاص.» ويتابع القديس كيرلس حكايته قائلاً: «! دخل (اسحاق السامري) اورشليم سأل عن مسكنتي انا كيرللوس . فعرّفه رجل شماس اني في كنيسة الصليب اصنع العيد ... وللوقت جاء ذلك الشماس وعرّفني وامرته ان يأتي به اليّ ، ثم قلت له : امضي وأتِ بهذا الخروف الضال الذي وجدته ليسمع كلام الله . واذا ما ظهرتْ توبته لكل احد نحن نعمده. والآن نكتفل تأويل الكلام ...»

وفي صفحة ٢٤٠ يذكر ايضاً نفسه بتواضع بين اساقفة اورشليم فيقول : « الانبا يوسف رييس اساقفة اورشليم الذي هو الرابع عشر الذي جلس بعد التلاميذ في الحنان. وانا ايضاً كيرللس انا واحد منهم لان المسيح رحمني ودخل بي الى البيعة وبشرت باسمه القدوس.»

١٦ — خلاصة الردود والبراهين

ان الاعتراضات التي قد تقوم ضد صحة نسبة الميمر الى القديس كيرلس ، اسقف اورشليم ، لمخالفته مؤرخي عصره في رواية رؤيا قسطنطين وعلاقة والدته هيلانة باكتشاف القبر والصليب ، لا تنفي حتماً هذه النسبة . اولاً لان هذه الاعتراضات غير قائمة على أساس راهن . ثانياً لان القديس كيرلس لم يكن معاصراً لهذه الحوادث . ثالثاً لاننا نجد في الميمر دلائل ترجح نسبته اليه رجوحاً يقرب من اليقين.

أ رؤيا قسطنطين

يستند المعارضون الى روايتي لاكتنس واوسابيوس اللذين يتفقان على ان الرؤيا حصلت في اثناء زحف قسطنطين على مكسنس ، عاصمة رومية ، لا على الفرس ، كما جاء في الميمر. انما لاكتنس ينفرد بتعيين جسر ميلفيوس بضواحي رومية ، مكاناً للرؤيا ، والميمر يعينه في تل رامح شمال سورية . بيد ان لاكتنس لا يذكر مستنده ، فيحملنا على الشك في روايته ؛ لان الاشاعات

عن ظهور آلهة لقسطنطين قبيل كل معركة كانت في عصره كثيرة متناقضة.

اما اوسابيوس فلم يعيّن للرؤيا مكاناً وناقض نفسه اولاً بزعمه ان الرؤيا ظهرت للملك وللجيش كله ، وانها بقيت سرّاً افضى به اليه قسطنطين في آخر حياته . ثانياً يخلط بين هذه الرؤيا وبين حلم ظهر فيه السيد المسيح ليلاً للملك مع علامة الصليب . ثالثاً يخلط ايضاً بين هذه العلامة والشارة التي اتخذها قسطنطين من حرفي اسم يسوع المسيح الاولين.

فهل يجوز نقض وثيقتنا برواية مضطربة متناقضة ؟

فضلاً عن ان رواية ميسرنا غير متناقضة ، لا بل هي موفقة بين تناقض المؤرخين . لانها تذكر ان قسطنطين ليلة المعركة رأى ، وهو يتفرّس مفكراً في السماء ، صليباً لامعاً مع كتابة «بهذه العلامة تنتصر» . وفي الغد شاهد ، وهو يطارد الاعداء ، ملائكة يلاحقونهم بسيوف مسلولة.

واذا استثنينا تعيين المكان فالميسر يتفق وروايات المؤرخين في ان الرؤيا ظهرت لقسطنطين في اول عهده بالملك قبل ان ينتصر . ويوافقهم ايضاً في كلامه عن اصل هذا الملك واولاده وسلفائه وخلفائه وبقية حوادث عصره . وهو لا يذكر حادثة جرت بعد عهد القديس كيرلس الاورشليمي.

وهب ان الميسر اخطأ في هذه الرواية ، فخطأه لا ينفي نسبته الى هذا القديس ، لانه لم يكن معاصراً للرؤيا. فقد ولد في سنة ٣١٣ ، وعلى الارجح في سنة ٣١٥ ، والرؤيا ظهرت في سنة ٣١٢ .

٢ً الملكة هيلانة

كذلك الاعتراضات القائمة حول علاقة الملكة هيلانة باكتشاف القبر والصليب وبناء كنيسة القيامة ، والموجهة ضد الاساطير السريانية ، لا تنفي نسبة الميسر الى القديس كيرلس الاورشليمي. اولاً لان هذه الاعتراضات تستند فقط الى سكوت أوسابيوس وقسطنطين الملك . ثانياً لانها متناقضة. ثالثاً لان رواية الميسر تختلف عن رواية الاساطير المذكورة . رابعاً لان ظهور القبر والصليب كان في عهد حداثة هذا القديس او في غيابه عن اورشليم . خامساً

لان هذه الرواية تتفق مع اشاعات عصره.

ب – السكوت

لا يصح اتخاذ السكوت عن امر قاعدة لنفيه . فسكوت قسطنطين الملك في رسالته الى مكاريوس اسقف اورشليم ، وسكوت اوسابيوس في ترجمته لقسطنطين عن علاقة والدته بهذا الاكتشاف لا ينفيها ، الا اذا أثبت الاب لكلير ، لسان حال المعارضين ، ان الرسالة ذكرت كل ما له علاقة بالقبر والصليب والآثار المقدسة ؛ وان تاريخ اوسابيوس ذكر كل ما له علاقة بالملك ووالدته ومعاصريه ، وانه وصل الينا صحيحاً كاملاً . والاب لكلير واغلب جهابذة النقد يعترفون بان ترجمة اوسابيوس عبارة عن قصيدة نظمها في مديحه فاغرق في الاطراء كمعاصريه . فلا غروَ اذا اهمل ما ليس للملك فضل فيه ، او نسبه اليه بغير حق.

فضلاً عن ان قسطنطين يتكلم في رسالته عن اكتشاف « علامة الآلام » وهذا التعبير لا يصح اطلاقه على قبر المسيح بل على « اداة الآلام » ، اي على صليبه والمسامير . لان السيد المسيح لم يتألم في القبر . ثم زد على ذلك ان قسطنطين يقول ان هذا الاكتشاف العجيب حدث على اثر انتصاره على ليشينيوس عدوّ المسيحيين اي بعد سنة ٣٢٤ . ولما كان اوسابيوس يذكر مجيء القديسة هيلانة الى اورشليم سنة ٣٢٦ فما المانع من ان تكون حضرت اكتشاف مغارة القبر ، حيث نُحبت الصلبان والمسامير ، واشرفت ايضاً على بناء كنيسة القيامة ، كما روى الميسر ؟

ج – التناقض

يحدد الاب لكلير اكتشاف الصليب بين السنة ٣٣٥ ، التي جاء فيها اوسابيوس الى اورشليم ، والسنة ٣٤٧ ، التي وصف فيها القديس كيرلس الاورشليمي تهافت المؤمنين على ذخائر عود الصليب ، ويقول ان ذلك دليل على ان عبادة الصليب قديمة. ويعود فيورد ما يقوله القديس نفسه ، في رسالته الى الملك قسطنس ، عن الصليب انه وُجد في عهد ابيه قسطنطين ، اي قبل سنة ٣٣٧ . ومن جهة اخرى نرى الاب لكلير يستند الى قول اوسابيوس عن

مكاريوس اسقف اورشليم انه باشر ، حال عودته من مجمع نيقية المنتهي في ٢٥ آب سنة ٣٢٥ ، حفر أساسات كنيسة القيامة فظهرت مغارة القبر . ويضيف الى ذلك شهادة اوسابيوس المذكور بان الملكة هيلانة زارت اورشليم سنة ٣٢٦ وبقيت فيها حتى قبيل وفاتها سنة ٣٢٩ ؛ وانها في هذه الاثناء بنت كنيستي جبل الزيتون وبيت لحم . فهي اذاً كانت حاضرة عملية رفع الردم وحفر أساسات كنيسة القيامة ، حيث وُجد القبر ، وحيث يرجح الكثيرون وجود الصليب ايضاً . كما انها حضرت بدء الاعمال في بناء هذه الكنيسة ، ان لم تكن قد شاهدت بناءها بكامله . والاب لكلير يشهد لها بعبادة حارّة نشيطة حملت المؤمنين على ان يقرنوا اسمها بذكرى بناء هذه الاماكن المقدسة ويقول ، نقلاً عن اوسابيوس ، ان قسطنطين ولدها وضع تحت تصرفها خزينة المملكة فانفقت مالاً كبيراً على بناء الكنائس . فكيف ينكر بعد ذلك علاقتها بهذه الحوادث ؟

٣ – اختلاف الميمر عن الاساطير

ولنفرض خطأ الاساطير السريانية في هذه الرواية فميمرنا لم يستق منها ، ويظهر انه اقدم منها عهداً . لانه يخالفها في كثير من التفاصيل وينسب الى الملك قسطنطين فضل البحث عن القبر ، وفتح التحقيق مع اليهود ، وتأمين اعمال الحفر ، والاهتمام ببناء كنيستي القيامة والجلجلة ، ويكتفي بقوله انه كلف والدته في غيابه الاشراف ، مع اسقف المدينة ، على هذه الاعمال ووضع تحت تصرفها اموالاً كبيرة أنفقتها على بناء الكنائس وأعمال البرّ . والميمر يهمل ذكرها في كلامه عن تدشين الكنائس سنة ٣٣٥ ، لانها توفيت سنة ٣٢٩ ، كما قلنا .

٤ – الخطأ

هَب ان الميمر أخطأ في روايته ، فخطأه لا ينفي نسبته الى القديس كيرلس . اولاً لان هذه الحوادث جرت في سنة ٣٢٦ ، وهو في الحادية عشرة من سنه ولعله كان غائباً عن اورشليم . فليس لدينا ما يثبت ولادته او اقامته فيها في عهد الحداثة . ثانياً الخطأ في رواية لا ينفي حتماً نسبتها الى راويها ، كما ان

غلط اوسابيوس في رواية الحوادث المعاصر لها لم يحمل احدًا على انكار تاريخه عليه. وفي يومنا تروي الجرائد حادثة وقعت في المدينة التي تصدر عنها وتختلف في رواياتها مع سهولة المواصلات والاستعلامات.

٥ً — ان رواية الميمر لا تنفي نسبته الى القديس كيرلس بل تعززها. لانها توافق رواية معاصريه القديسين يوحنا فم الذهب وامبروسيوس (٣٩٠–٣٩٥) القائلين بان الصليب اكتشف تحت اشراف القديسة هيلانة، وانه عُرف بين الصلبان الثلاثة من الكتابة الباقية عليه. وتخالف رواية روفينوس وپولينوس من نولي (٤٠٢) واتباعهما من مؤرخي اوائل القرن الخامس، القائلين بان الصليب الحقيقي عُرف من شفاء مدنفة او من اقامة ميت. وسندلي بذلك بما يرجح ان القديس كيرلس لفظ هذا الميمر في آخر حياته.

٣ً دلائل نسبته

للوصول الى معرفة مؤلف الميمر رأينا ان نبحث بين نصوصه عن دلائل لغته الاصلية وطريقة انتقاله الى اللغة العربية، وعن الجمهور الذي أُلقي عليه، ومذهب صاحبه وجنسيته وأسلوبه وافكاره وعن نظام عظته وعصرها.

١ً — لغة الميمر

عربية ركيكة مضطربة مشحونة اغلاطًا نحوية وصرفية، من عثر الانحطاط. ويستدل من تعابير الميمر ان التعريب لاحد السريان الارثوذكس القاطنين في القطر المصري، نقله عن نص سرياني منقول بدوره عن اليونانية لغة الميمر الاصلية، التي وصلت لنا بها بقية تآليف القديس كيرلس. فضعف المعرّب في اللغتين العربية والسريانية، وضعف المترجم في اللغتين السريانية واليونانية وتوخيهما الترجمة الحرفية حفظ لنا في الانشاء الصبغة الاصلية اليونانية، وفي التعابير آثارًا واضحة للغتين السريانية واليونانية ولتعريبه وترجمته في وادي النيل.

٢ً — الجمهور

تصرّح نصوص الميمر انه أُلقي على جمهور مسيحي فلسطيني انضمّ اليه بعض الحجاج الغرباء الوافدين الى اورشليم لحضور حفلة ارتفاع الصليب في كنيسة

القيامة ؛ وأن هذا الجمهور محاط بعنصر وثني ضعيف الشأن ، وعنصرين يهودي واريوسي شديدَي الوطأة ، يخاف الواعظ من تأثيرهما على المؤمنين فيحمل عليهما، وخاصة على الاول ، حملات متواصلة عنيفة. كل هذا يوافق عصر القديس كيرلس وحالة المسيحيين في المدينة المقدسة في اواخر القرن الرابع .

٣ً – مذهب المؤلف وجنسيته

المؤلف فلسطيني كاثوليكي ، اذ ليس في ميمره ما يشتم منه رائحة الهرطقات الشرقية ، بل بالعكس نجد في اقواله ما ينافيها . وهو لا يتعرّض رأساً الّا للاريوسية ولبدعة مركلوس الانقيري ، اللتين استفحل امرهما في عصر القديس كيرلس اي في اواسط واواخر القرن الرابع . فهو اذاً غير يوناني ولا سرياني منشق . وهو ايضاً ليس بقبطي ، وان تُرجم ميمره وعُرّب في القطر المصري ؛ لان الاقباط يعاقبة ويجهلون السريانية . فضلاً عن انك تجد في الميمر دلائل تنفي تاليفه في القطر المصري. كقوله عن الزرع الذي ينمو بماء المطر ، والمطر نادر بمصر ، ولا يعتمدون عليه في الزراعة بل على ماء النيل.

اما الميامر القبطية الموضوعة على ارتفاع الصليب والمنسوبة زوراً الى القديس كيرلس فهي تختلف عن ميمرنا بالتفاصيل ، وأحدها ، الذي يقرب منه ، يأخذ عنه بعض المعلومات وعن الاساطير البعض الآخر ، وينفرد بشيء منها لا تجده في هذا ولا في تلك . فان لم تكن غاية المزوّر بثّ رأي فاسد باسم القديس كيرلس فما غرضه من نسبته اليه ؟

٤ً – الاسلوب

أسلوب الميمر وانشاؤه مطابقان لاسلوب القديس كيرلس وطريقة انشائه . فهو مثله بسيط واضح خالٍ من الاصطلاحات اللاهوتية ، وَدود ، حماسي ، مستند الى الآيات الكتابية ؛ وبجانب ذلك مراجعات مملة ، وعبارات مبتورة ، وحكايات طويلة خارجة عن الموضوع ، ونصوص من الكتاب المقدس مشوّهة .

٥ً – الافكار

الآراء اللاهوتية النادرة الواردة في الميمر مشابهة لما ورد في عظات القديس كيرلس ، عن الروح القدس وولادة المسيح الاولى الازلية والثانية الجسدية .

وعن ملكوته الازلي وكهنوته وتضحيته ، ولاهوته المتحد اتحادًا تامًا والمحتجب بالناسوت ، فلا يُرى الا بالعجائب ؛ وعن عتقه اصحابَه من عبودية الخطيـة وأسر الجحيم . ومن هذه الافكار ما هو مكرر تقريباً حرفياً ، كقوله عن المسيح انه اتخذ لفدائنا سلاح الجسد الذي حاربنا به عدوّنا .

٦ – نظام الميمر

الميمر قائم على آيتَي المزامير عن مُلك الرب وتهليل الامم او غضبها . انما لا نظام راهن فيه ، مما يدل على انه أُلقي عفوًا بعد قليل من الاستعـداد . والحكايات التي يسردها تستغرق اكثر الميمر ، فيعتذر عن الاطالة فيها ويعود بعد قليل الى ارتكاب الشطط نفسه والى نفس الاعتذار . فهذه الاستدراكات تـدل على ان الميمر غير ملفّق لان الوقت متسع للملفّق ليرفع او يصحح او يختصر ما يراه عيباً في عظته فيستغني عن الاعتذار . ناهيـك عن اشاراته الى القبر وتوارد الحجاج وازدحامهم لسماع العظة وحضور حفلة ارتفاع الصليب ، والى تعبهم من الطريق ، وتململهم من طول العظة ، ومطالبتهم اياه بالسير على البرنامج الذي اعلنه في صدر العظة . وضيق الوقت عن القيام بحفلة المعمودية والمناولـة والمِيـوزيس ودفع الاولين مما لاكتساب الوقت ، وغير ذلـك مما لا يعقل ان يشير اليه مصطنع الميمر او ملفقه .

٧ – عصره

تصرّح نصوص الميمر ان القديس كيرلس اسقف اورشليم ألقاه في كنيسة القيامة في حفلة ارتفاع الصليب وتدل على انه قاله في آخر حياته .

فكلامه عن اكرام الصليب يدل على انه القي في بلد مسيحي ، اي قبل فتح الاسلام لاورشليم سنة ٦٣٦ . ووصفه مصرع يوليانوس الجاحد يدل على القائه بعد سنة ٣٦٣ . واهماله ذكر بدعتي نسطور وديوسقوروس دليـل على انه أُلقي قبل القرن الخامس . وحملته على الاريوسية وعلى بدعـة مركلوس توجب علينا تعيينه في ابان استفحالها اي بين اواسط القرن الرابع واوائل الخامس . ناهيك عن اعتماده على معلوماته الشخصية في اغلب حوادث القرن الرابع ، وعلى التقاليد في ما سبقه ، واهماله تماماً كل ما تجاوز هذا القرن .

أضف الى ذلك موافقته لرأي معاصريه القديسين فم الذهب وامبروسيوس (٣٩٠-٣٩٥) في ان الصليب الحقيقي عُرف بين الصلبان الثلاثة من الكتابة الباقية عليه ، ومخالفته لروفينوس وپولينوس من نولي (١٠٢) وأتباعهما في انه عُرف من شفاء مدنفة او اقامة ميت.

فالميمر ألقي اذاً اما بين سنة٣٦٣التي عاد فيها القديس كيرلس من المنفى ، او ، على الارجح ، بين سنة ٣٧٨ التي رجع فيها القديس كيرلس نهائياً من هذا المنفى الى كرسيه اورشليم ، وسنة ٣٨٧ ، التي جاور فيها ربه . قاله، كما يصرح الميمر نفسه، في كنيسة القيامة في الرابع عشر من شهر ايلول قبيل حفلة الصليب .

***

هذا لا يعني اننا نجرأ على البتّ في ذلك ، بل نحن ندلي بدلونا بين الدلاء لعله يغترف الحقيقة او بعضها . وعسى أن نجد بين العلماء المتضلعين من تاريخ الكنيسة والواقفين على آراء القديس كيرلس الاورشليمي مَن يأخذ بناصر هذا الرأي ويدعمه بما خفي علينا ، أو حال الوقت وخوف الاطالة بيننا وبينه . وان ظهر من ينقده فقد افادنا الهداية الى الحقيقة ، التي ننشدها من صميم القلب.

واليك الآن نصّ الميمر ننقله حرفياً عن مخطوطة بكركي ، مع الاشارة الى ما يخالفه في النصّ الحلبي ، والمقابلة بينه وبين رواية الميمر القبطي والاساطير السريانية ، معلقين على بعض نصوصه بشرح وجيز او اشارة سريعة . وقد قسمناه الى اجزاء حسب موضوعاته ، وقسمنا هذه الاجزاء الى فقرات. ووضعنا لكل منها عنواناً ورقماً تسهيلاً على القارئ . وعلى المولى الاعتماد اولاً وآخراً.

اصطلاحات

ب نصّ بكركي
ح النصّ الحلبي
ق الميمر القبطي
س الاساطير السريانية